أضواء
على أحاديث أُسِئَ فهمها

obeikandl.com

obeikandl.com

حديث (بدأ الإسلام غريبًا)

س : من الأحاديث المشتهرة على الألسنة والأقلام : حديث (بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا ، كما بدأ ، فطوبى للغرباء) .

فما مدى صحة هذا الحديث من ناحية ؟ وما المراد به ؟ وهل كلمة (غريبًا) من الغربة أو من الغرابة ؟ فقد سمعت بعض المتحدثين فى (الإذاعة) يؤكد أنها من (الغرابة والدهشة) وينفى أن تكون من (الغربة) .

وإذا كانت من الغربة كما هو الشائع والمتبادر ، فهل يعنى هذا ضعف الإسلام وأفول نجمه ؟

وهل هناك دلائل على انتصار الإسلام مرة أخرى ، كما انتصر فى القرون الأولى للهجرة ؟ .

ج : الحديث صحيح الإسناد بلا نزاع من أهل هذا الشأن ، وهو مروى عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم .

فقد رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود ، وابن ماجه عن أنس ، والطبرانى عن سلمان وسهل بن سعد ، وابن عباس ، رضى الله عنهم جميعًا ، كما فى الجامع الصغير .

وقد رواه مسلم عن ابن عمر دون جملة (فطوبى للغرباء) .

وبهذا نعلم أن صحة الحديث لا كلام فيها ، وبقى الكلام فى معناه .

ومن المؤسف أن كثيرًا من الأحاديث المتعلقة بـ (آخر الزمان) أو ما يسمى (أحاديث الفتن) و(أشراط الساعة) يفهمها بعض الناس فهمًا يوحى باليأس من كل عمل للإصلاح والتغيير .

ولا يُتصور أن يدعو الرسول الكريم ﷺ الأُمة إلى اليأس والقنوط ، وترك الفساد يستشرى فى الناس ، والمنكرات تنخر فى عظام المجتمع ، دون أن يصنع الناس شيئًا ، يقوّم ما أعوجّ ، أو يصلح ما فسد .

وكيف يُتصور ذلك ، وهو - صلى الله عليه وسلم - يأمر بالعمل لعمارة الأرض ، إلى أن تلفظ الحياة آخر أنفاسها ، كما يتضح ذلك من الحديث الشريف : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تقوم - أى الساعة - حتى يغرسها ، فيلغرسها » (١) .

ومعنى هذا أنه لن يأكل من ثمر هذا الغرس ولا أحد من بعده ، ما دامت الساعة قد قامت ، أو توشك أن تقوم .

فإذا كان هذا مطلوبًا فى أمر الدنيا ، فأمر الدين أعظم وأجل ، ولا بد من العمل من أجله إلى آخر رمق فى هذه الحياة .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ، والبخارى فى الأدب المفرد عن أنس ، وكذا الطيالسى والبزار ، وقال الهيثمى : رواته ثقات أثبات .

أما معنى كلمة (غريبًا) فالمتبادر أنها من (الغربة) لا من (الغرابة) بدليل آخر الحديث (فطوبى للغرباء) فالغرباء هنا جمع (غريب) والمراد به المتصف بالغربة لا الغرابة .

وإنما كانت غربتهم من غربة الإسلام الذى يؤمنون به ويدعون إليه ، وهذا هو المعنى المفهوم من كلمة (غريب) فى أكثر من حديث مثل (كن فى الدنيا كأنك غريب) رواه البخارى .

كما جاءت جملة أحاديث وروايات فيها زيادات فى هذا الحديث ، فى وصف (الغرباء) مما يؤكد أن المقصود هو الغربة لا الغرابة .

هذا إلى أن الواقع اليوم وفى عصور خلت ، يدل على غربة الإسلام فى دياره ذاتها ، وبين أهله أنفسهم . حتى إن من يدعو إلى الإسلام الحق يعانى الاضطهاد والتنكيل ، أو الشنق أو الاغتيال !

ولكن هل هذه الغربة عامة وشاملة ودائمة ، أو هى غربة جزئية ومؤقتة ؟ فقد تكون فى بلد دون آخر ، وفى زمن دون آخر . وبين قوم دون غيرهم ، كما ذكر ذلك المحقق ابن القيم رضى الله عنه .

والذى أراه : أن الحديث يتحدث عن دورات أو (مَوْجات) تأتى وتذهب ، وأن الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوة والضعف ، والامتداد والانكماش ، والازدهار والذبول ، وفق سنن الله التى لا تتبدل ، فهو كغيره خاضع لهذه السنن الإلهية، التى لا تعامل الناس بوجهين ، ولا تكيل لهم

بكيلين ، فما يجرى على الأديان والمذاهب يجرى على الإسلام ، وما يجرى على سائر الأمم يجرى على أمة الإسلام .

فالحديث ينبئ عن ضعف الإسلام فى فترة من الفترات ، ودورة من الدورات ، ولكنه سرعان ما ينهض من عثرته ، ويقوم من كبوته ، ويخرج عن غربته ، كما فعل حين بدأ .

فقد بدأ غريبًا ، ولكنه لم يستمر غريبًا ، لقد كان ضعيفًا ثم قوى مستخفيًا ثم ظهر ، محدودًا ثم انتشر ، مضطهدًا ثم انتصر .

وسيعود غريبًا كما بدأ ، ضعيفًا ليقوى ، ثم يقوى ، مطاردًا ليظهر ثم يظهر على الدين كله ، ملاحقًا مضطهدًا لينتشر وينتشر ، ثم ينتصر وينتصر .

فلا دلالة فى الحديث على اليأس من المستقبل إن أحسنا فهمه .

ومما يدل على أن الحديث لا يعنى الاستسلام أو اليأس ، ولا يدعو إليه بحال : ما جاء فى بعض الروايات من وصف لهؤلاء (الغرباء) من أنهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنة ، ويحيون ما أماته الناس منها .

فهم قوم إيجابيون بناؤون مصلحون ، وليسوا من السلبيين أو الانعزاليين أو الاتكاليين ، الذين يدعون الأقدار تجرى فى أعنتها ، ولا يحركون ساكنًا ، أو ينبهون غافلاً .

ومن المفيد أن أنقل هنا ما كتبه الإمام ابن القيم حول هذا الحديث ،

عند شرح كلام شيخه الهروى فى باب (الغربة) من (منازل السائرين) إلى مقامات : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فقال رحمه الله فى (مدارج السالكين) :

قال شيخ الإسلام (باب الغربة) قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ (١) ، قال ابن القيم معلقًا وشارحًا :

(استشهاده بهذه الآية فى هذا الباب : يدل على رسوخه فى العلم والمعرفة ، وفهم القرآن ، فإن الغرباء فى العالم : هم أهل هذه الصفة المذكورة فى الآية ، وهم الذين أشار إليهم النبى ﷺ فى قوله : « بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » . قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ ؛ قال : « الذين يصلحون إذا فسد الناس » (٢) . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن زهير عن عمرو بن أبى عمرو - مولى

---

(١) هود : ١١٦

(٢) أورده الهيثمى فى (مجمع الزوائد) من حديث سهل بن سعد الساعدى ، بنحوه ، وقال : رواه الطبرانى فى الثلاثة ورجاله رجال الصحيح ، غير بكر بن سليم ، وهو ثقة : (٧/ ٢٧٨) ، ومن حديث جابر ، وقال : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه عبد الله بن صالح ، كاتب الليث ، وهو ضعيف وقد وثق : (٧/ ٢٧٨) .

المطلب بن حنطب - عن المطلب بن حنطب عن النبى ﷺ قال : « طوبى للغرباء » . قالوا : يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال : « الذين يزيدون إذا نقص الناس » (١) .

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظًا - لم ينقلب على الراوى لفظه وهو : « الذين ينقصون إذا زاد الناس » - فمعناه : الذين يزيدون خيرًا وإيمانًا وتقى ، إذا نقص الناس من ذلك . والله أعلم .

وفى حديث الأعمش عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « النُزّاع من القبائل » (٢) .

---

(١) بحثت عن الحديث فى مظانه فى المسند فلم أجده ، وكذلك لم أجده فى (مجمع الزوائد) للهيثمى ، ولا أشار إليه فى المعجم المفهرس للكتب التسعة . بل لم أجد المطلب بن حنطب ضمن الصحابة الرواة فى المسند ، وفقًا لفهرس الشيخ الألبانى . فإما أن يكون ساقطًا من المطبوع كما تبينت ذلك مع عقبة بن مرة الجهنى ، فإن له ثلاثة أحاديث فى المسند ، ليس فى المطبوع إلا واحد منها ، أو يكون أحمد رواه خارج المسند . والله أعلم .

(٢) الحديث فى الدارمى برقم (٢٧٥٧) وابن ماجه برقم (٣٩٨٨) ، والترمذى برقم (٢٦٣١) بدون السؤال وقال : حسن غريب صحيح ، والبيهقى فى الزهد برقم (٢٠٨) ، والبغوى فى شرح السنة ، وصححه : (١/١١٨) ، حديث (٦٤) - نشر المكتب الإسلامى.

وفى حديث عبد الله بن عمرو قال : قال النبى ﷺ ذات يوم . ونحن عنده - « طوبى للغرباء » . قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « ناس صالحون قليل فى ناس كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » (١) .

وقال أحمد : حدثنا الهيثم بن جبل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إن أحب شىء إلى الله الغرباء » قيل : ومن الغرباء ؟ قال : « الفرارون بدينهم . يجتمعون إلى عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة » (٢) .

وفى حديث آخر « بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « الذين يحيون سنتى ، ويعلمونها الناس » (٣) .

---

(١) الحديث فى المسند وصحَّحه الشيخ شاكر ، كذا أورده الهيثمى : (٢٧٨/٧) ، وقال : رواه أحمد والطبرانى فى « الأوسط » وفيه ابن لهيعة ، وفيه ضعف ، وذكره فى موضع آخر جزءًا من حديث وعزاه إلى الطبرانى فى الكبير ، وقال : له فيه أسانيد ، ورجال أحدهما رجال الصحيح : (٢٥٦/١٠).

(٢) رواه أحمد فى (الزهد) ص ٧٧ ، وليس فى (المسند) كما رواه البيهقى فى الزهد برقم (٢٠٦) .

(٣) رواه البيهقى فى الزهد من حديث كثير بن عبد الله بن عوف ، عن أبيه ، عن جده ، وهو ضعيف جدًا رقم (٢٠٧) كما رواه الترمذى بهذا =

وقال نافع عن مالك (دخل عمر بن الخطاب المسجد ، فوجد معاذ بن جبل جالسًا إلى بيت النبى ﷺ ، وهو يبكى ، فقال له عمر : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ هلك أخوك : ؟ قال : لا ، ولكن حديثًا حدثنيه حبيبى ﷺ ، وأنا فى المسجد ، فقال : ما هو ؟ قال : إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء . الذين إذا غابوا لم يفتقدوا . وإذا حضروا لم يعرفوا . قلوبهم مصابيح الهدى . يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة) (١) .

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون . ولقلتهم فى الناس جدًا : سموا (غرباء) فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات ، فأهل الإسلام فى الناس غرباء ، والمؤمنون فى أهل الإسلام غرباء ، وأهل العلم فى المؤمنين غرباء ، وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فيهم غرباء ، والداعون إليها الصابرون على أذى

= السند برقم (٢٦٣٢) ، وقال : حسن ، وفى بعض النسخ : حسن صحيح !! ولفظه : (فطوبى للغرباء ، الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من سنتى) . وهذا مما أخذه عليه النقاد ، ولعله حسنه أو صحَّحه لكثرة شواهده .

(١) الحديث بنحو هذا اللفظ عند ابن ماجه (٣٩٨٦) ، وضعفه فى الزوائد بابن لهيعة ورواه الحاكم بسند آخر ، وقال : صحيح ولا علة له عن زيد بن أسلم : (٤/١) ، ووافقه الذهبى وانظر : كتابنا المنتقى من الترغيب والترهيب حديث رقم (١٩) ورواه البيهقى فى الزهد بسند آخر ، برقم (١٩٧) ، عن ابن عمر .

المخالفين : هم أشد هؤلاء غربة . ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًا ، فلا غربة عليهم ، وإنما غربتهم بين الأكثرين ، الذين قال الله عَزَّ وجَلَّ فيهم : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنِ فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ (١) فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه ، وغربتهم هى الغربة الموحشة ، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم . كما قيل :

فليس غريبًا من تناءت دياره ولكن من تنأيْنَ عنه غريب !

ولما خرج موسى عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين ، على الحال التى ذكر الله ، وهو وحيد غريب خائف جائع ، فقال : (يا رب وحيد مريض غريب . فقيل له : يا موسى ؛ الوحيد : من ليس له مثلى أنيس ، والمريض : من ليس له مثلى طبيب . والغريب : من ليس بينى وبينه معاملة) .

فالغربة ثلاثة أنواع : غربة أهل الله وأهل سُنَّة رسوله بين هذا الخلق . وهى الغربة التى مدح رسول الله ﷺ أهلها . وأخبر عن الدين الذى جاء به : أنه (بدأ غريبًا) ، وأنه (سيعود غريبًا كما بدأ) ، وأن (أهله يصيرون غرباء) .

وهذه الغربة قد تكون فى مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون قوم ، ولكن أهل هذه (الغربة) هم أهل الله حقًا .

---

(١) الأنعام : ١١٦

فإنهم لم يأووا إلى غير الله ، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به ، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم . فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا فى مكانهم . فيقال لهم : (ألا تنطلقون حيث انطلق الناس ؟ فيقولون : فارقنا الناس ، ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده) .

فهذه (الغربة) لا وحشة على صاحبها . بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس . وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا . فوليه الله ورسوله والذين آمنوا ، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه .

وفى حديث القاسم عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال - عن الله تعالى - : (إن أغبط أوليائى عندى : لمؤمن ، خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة . أحسن عبادة ربه ، وكان رزقه كفافًا ، وكان مع ذلك غامضًا فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وصبر على ذلك حتى لقى الله . ثم حلت منيته [1] ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه) [2] .

---

(١) نص الترمذى : ثم نفض بيده فقال : عجلت منيته .. إلخ .. والمراد بقوله : أغبط الناس : أحق من يتمنى الناس مثل حاله . وخفيف الحاذ ، أى : خفيف الظهر من العيال . كفافًا ، أى : بقدر الحاجة ، لا يشار إليه بالأصابع ، أى : أنه مغمور غير مشهور ، ومعنى (عجلت منيته) : أنه لم يعمر طويلاً ، فقد يصاب أو يستشهد فى سبيل الله . قل تراثه : لم يترك مالاً كثيرًا . قلت بواكيه : ربما لموته فى الغربة ، فلا أحد يعرفه يبكى عليه .

(٢) رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٨) من طريق عبيد الله بن زحر عن على =

ومن هؤلاء الغرباء : من ذكرهم أنس فى حديثه عن النبى صلى الله عليه وسلم : (رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له . لو أقسم على الله لأبره) (١) .

وفى حديث أبى إدريس الخولانى عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : كل ضعيف أغبر ، ذى طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » (٢) .

وقال الحسن : المؤمن فى الدنيا كالغريب ، لا يجزع من ذلها ،

= ابن زيد عن القاسم ، وهو إسناد ضعيف ، وإن حسنه الترمذى ، كما رواه ابن ماجه بنحوه بإسناد آخر (٤١١٧) ، وفيه راويان ضعيفان كما فى الزوائد للبوصيرى .

(١) أورده الهيثمى بنحوه فى « المجمع » : (١٠/ ٢٦٤) ، وقال : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه عبد الله بن موسى التميمى وقد وثق ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، عن جابر بن هرم ، وقد وثقه ابن حبان على ضعفه ، وأورد نحوه من حديث ابن مسعود ، وإسناده أجود ، وفي صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) الحديث رقم(٢٦٢٢) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١١٥) ، وفيه سويد بن عبد العزيز ، ضعفوه ، وحسنه بعضهم لشواهده ، انظر : فيض القدير :حديث (٢٨٥٢) .

ولا ينافس فى عزها . للناس حال وله حال . الناس منه فى راحة ، وهو من نفسه فى تعب .

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبى ﷺ : التمسك بالسنة ، إذا رغب عنها الناس . وترك ما أحدثوه ، وإن كان هو المعروف عندهم ، وتجريد التوحيد ، وإن أنكر ذلك أكثر الناس . وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله ، لا شيخ ، ولا طريقة ، ولا مذهب ، ولا طائفة ، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده ، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده ، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًا ، وأكثر الناس - بل كلهم - لائم لهم . فلغربتهم بين هذا الخلق : يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ، ومفارقة للسواد الأعظم !

ومعنى قول النبى ﷺ : « هم النزَّاع من القبائل » : أن الله سبحانه بعث رسوله ، وأهل الأرض على أديان مختلفة ، فهم بين عباد أوثان ونيران ، وعباد صور وصلبان ، ويهود وصابئة وفلاسفة ، وكان الإسلام فى أول ظهوره غريبًا . وكان من أسلم منهم ، واستجاب لله ولرسوله : غريبًا فى حيه وقبيلته ، وأهله وعشيرته .

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعًا من القبائل ، بل آحادًا منهم . تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم ، ودخلوا فى الإسلام ،

فكانوا هم الغرباء حقًا حتى ظهر الإسلام ، وانتشرت دعوته ، ودخل الناس فيه أفواجًا ، فزالت تلك الغربة عنهم ، ثم أخذ فى الاغتراب والترحل ، حتى عاد غريبًا كما بدأ ، بل الإسلام الحق - الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - هو اليوم أشد غربة منه فى أول ظهوره ، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة . فالإسلام الحقيقى غريب جدًا . وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس .

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدًا ، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة . ذات أتباع ورئاسات ، ومناصب وولايات . ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول ؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم ، وما هم عليه من الشبهات والبدع التى هى منتهى فضيلتهم وعلمهم ، والشهوات التى هى غايات مقاصدهم وإرادتهم ؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم ، وأطاعوا شيخهم ، وأُعجب كل منهم برأيه ؟ كما قال النبى ﷺ : « مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحًا مطاعًا ، وهوى متبعًا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، ورأيت أمرًا لا يد لك به ، فعليك بخاصة نفسك ، وإياك وعوامهم . فإن وراءكم أيامًا صبر الصابر

فيهم كالقابض على الجمر » . (ولهذا جعل للمسلم الصادق فى هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة [1] ، ففى سنن أبى داود والترمذى - من حديث أبى ثعلبة الخشنى - قال : (سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [2] ، فقال : بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا ، وهوى متبعًا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام ، فإن من وراءكم أيام الصبر ، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله . قلت : يا رسول الله ، أجر خمسين منهم ؟ قال : « أجر خمسين منكم » [3] وهذا الأجر إنما هو لغربته بين الناس ، والتمسك بالسُّنَّة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم .

---

(١) وهذا يقوى قول الحافظ ابن عبد البر فى أن تفضيل قرن الصحابة تفضيل للمجموع لا لكل فرد ، باستثناء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وأهل بدر وأهل أحد ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن كان له فضيلة خاصة من الصحابة ، وهذا يفتح باب الأمل للأجيال اللاحقة ، ويؤيده حديث الترمذى : « مثل أمتى كمثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » .

(٢) المائدة : ١٠٥

(٣) رواه أبو داود فى الملاحم برقم (٤٣٤١) ، والترمذى فى التفسير برقم (٣٠٦٠) ، وقال حسن غريب ، وابن ماجه فى الفتن (٤٠١٤) .

فإذا أراد المؤمن ، الذى قد رزقه الله بصيرة فى دينه ، وفقهًا فى سنة رسوله ، وفهمًا فى كتابه ، وأراه ما الناس فيه : من الأهواء والبدع والضلالات ، وتنكبهم عن الصراط المستقيم ، الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط : فليوطن نفسه على قدح الجهال ، وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وإزرائهم به ، وتنفير الناس عنه ، وتحذيرهم منه (١) ، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ ، فأما إن دعاهم إلى ذلك ، وقدح فيما هم عليه ، فهنالك تقوم قيامتهم ، ويبغون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، ويُجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجْله .

فهو غريب فى دينه لفساد أديانهم ، غريب فى تمسكه بالسُّنَّة ، لتمسكهم بالبدع ، غريب فى اعتقاده ، لفساد عقائدهم . غريب فى صلاته ، لسوء صلاتهم . غريب فى طريقه ، لضلال وفساد طرقهم . غريب فى نسبته ، لمخالفة نسبهم . غريب فى معاشرته لهم ، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم .

وبالجملة : فهو غريب فى أمور دنياه وآخرته ، لا يجد من العامة

---

(١) فى عصرنا دخل عنصر يزيد من غربة المؤمنين الداعين إلى الله ، وإلى كتابه وسنة نبيه ، وهو اضطهاد السلطات الحاكمة لهم ، ومطاردتها لهم، واستخدام كل ما تملك من قوة لإيذائهم والتضييق عليهم ، ثم كيد القوى المعادية للإسلام ، وما أكثرها عددًا ، وأقواها عدة ، وأشدها مكرًا !

مساعدًا ولا معينًا . فهو عالم بين جهال ، صاحب سنة بين أهل بدع ، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع . آمر بالمعروف ، ناهٍ عن المنكر ، بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف [1] أ هـ .

* *

● **بشائر من القرآن بظهور الإسلام من جديد :**

أما ما سأل عنه الأخ من وجود بشائر ودلائل على انتصار الإسلام فى المستقبل ، فهى كثيرة ومتوافرة ، فى كل من القرآن والسنة ، وإن كان كثير من الخطباء والوعاظ يغفلونها ، ولا يبرزون إلا ما يوحى ظاهره بالقنوط ، وقد ذكرنا جملاً من هذه البشائر من قبل ، فليُرْجَع إليها .

ومن هذه البشائر :

١ - ظهور الصحوة الإسلامية ، التى أعادت للأمة الثقة بالإسلام ، والرجاء فى غده ، وقد أقلقت أعداء الإسلام فى الداخل والخارج ، وهى جديرة أن تقود الأُمة إلى مواطن النصر ، إذا قدر الله لها أن يتولى زمامها المرشدون الراشدون ، من أولى

---

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم :
(جـ١/ ١٩٤ - ٢٠٠) ط السنة المحمدية .

الأيدى والأبصار ، الذين آتاهم الله الفقه فى سنن الله ، والفقه فى دين الله ، والحكمة فى النظر ، والحكمة فى العمل : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

٢ - انهيار الأنظمة الشمولية ، وخصوصًا الشيوعية التى زعمت يومًا أنها ستغزو العالم ، وترث الأديان ، وتهزم الفلسفات ، والتى لقيت أولى هزائمها على أيدى إخواننا المجاهدين فى أفغانستان ، والذين انتصروا بأسلحتهم العتيقة على أعتى دولة ملحدة فى التاريخ.

لقد سقطت قلاع الشيوعية واحدة بعد الأخرى ، بدءًا بالاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية ، وإنتهاء بألبانيا .

* * *

(١) البقرة : ٢٦٩

حديث (لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه)

س : كنت أقرأ فى كتاب دينى ، فصادفنى فيه حديث اقشعر له جلدى ، ولم أكد أصدقه لأول وهلة ، فالحديث يقول فيه النبى ﷺ : « لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه » .

ولما سألت عنه بعض العلماء الذين لهم معرفة بالحديث أخبرنى بأن الحديث صحيح ، وأنه من رواية البخارى ، فأُسقِط فى يدى ، فماذا عسى أن أقول إذا كان الحديث فى صحيح البخارى ، أصح كتاب فى الإسلام بعد كتاب الله تعالى ؟

فهل معنى هذا الحديث أننا فى انحدار دائم ، وتدهور مطرد ، وأننا ننتقل من حسن إلى سيئ ، ومن سيئ إلى أسوأ ، ومن أسوأ إلى ما هو أشد سوءًا ، حتى تقوم الساعة ؟

هذا مع أن هناك كثيرًا من الناس يعتقدون عكس هذا تمامًا : أن الحياة تترقى ، والدنيا تتطور ، والإنسان يزداد كل يوم علمًا بالعالم من حوله ، ومن تحته ومن فوقه حتى وصل إلى القمر فى السماء !

ثم إن الحديث يلقى فى نفوسنا أن لا أمل فى شىء ، ولا نجاة لنا مما نحن فيه ، ما دمنا ننحدر إلى الهاوية يومًا بعد يوم ، فهذا قدر كتبه الله علينا ، وسنة صارمة لا زمة دائمة لا بد أن نخضع لها.

حتى تقوم الساعة على لكع ابن لكع أى كافر ابن كافر ، كما سمعنا من السادة العلماء .

ولقد علمت من بعض الأخوة المتتبعين لما تكتبون بأن لكم فى هذا الحديث تأويلاً أودعتموه بعض كتبكم ، أرجو أن تدلنى عليه ، عسى أن يزيح ما بنفسى من قلق ، وما بقلبى من حيرة وبلبلة .

جزاكم الله عن العلم والإسلام خيرالجزاء .

م . ك . ع

الرباط - المغرب

* ج : الحديث المذكور رواه الإمام البخارى فى جامعه الصحيح ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، فهو حديث صحيح من ناحية سنده ، ولكن الآفة تأتى هنا من فهمه فهمًا يخالف سنن الله ، أو حقائق العلم ، أو ثوابت الواقع ، ولا يمكن أن يأتى الدين بما يخالف ذلك ، لأن الدين حق ، وهذه الأشياء المذكورة حق ، والحق لا يتناقض ، فإما أن يكون لهذه الأشياء تفسير غير ما يبدو لنا ، أو يكون للنص الدينى تأويل غير الظاهر المتبادر منه .

وأحاديث (الفتن) وما يتعلق بما يسمى (آخر الزمان) أو (أشراط الساعة) يكثر فيها سوء الفهم ، ولذا ينبغى التأمل الطويل فى معانيها ، حتى لا يتخذها الناس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل ، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير .

والحديث المذكور نموذج لهذا النوع من الأحاديث . وقد تعرضت لبيان معناه ، ورد الأفهام الخاطئة التى أحاطت به ، وذلك فى كتابى (كيف نتعامل مع السنة النبوية) وكان مما قلته فى ذلك :

* *

● هل كل زمن شر مما قبله ؟

روى البخارى بسنده إلى الزبير بن عدى ، قال : أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : إصبروا ، فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا الذى بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم ﷺ .

يتخذ بعض الناس من هذا الحديث تكأة للقعود عن العمل ، ومحاولة الإصلاح والإنقاذ ، مدعيًا أن الحديث يدل على أن الأمور فى تدهور دائم ، وسقوط مستمر وهوى متتابع ، من درك إلى درك أسفل منه ، فهى لا تنتقل من سيئ إلا إلى أسوأ ، ولا من أسوأ إلا إلى الأسوأ منه . حتى تقوم الساعة على شرار الناس ويلقى الناس ربهم .

وآخرون توقفوا فى قبول الحديث ، وربما تعجل بعضهم فردَّه ، لأنه فى ظنه يدعو :

أولاً : إلى اليأس والقنوط .

وثانيًا : إلى السلبية فى مواجهة الطغاة من الحكام المنحرفين .

وثالثًا : يعارض فكرة (التطور) التى قام عليها نظام الكون والحياة.

ورابعًا : ينافى الواقع التاريخى للمسلمين .

وخامسًا : يعارض الأحاديث التى جاءت فى ظهور خليفة يملأ الأرض عدلاً (وهو الذى عرف باسم المهدى) وفى نزول عيسى ابن مريم ، وإقامته لدولة الإسلام ، وإعلاء كلمته فى الأرض كلها .

ومن الحق علينا أن نقول : إن السابقين من علمائنا قد وقفوا عند هذا الحديث مستشكلين (الإطلاق) فيه . يعنون بالإطلاق ما فهم من الحديث : أن كل زمن شر من الذى قبله ، مع أن بعض الأزمنة تكون فى الشر دون التى قبلها ، ولو لم يكن فى ذلك إلا زمن عمر ابن عبد العزيز ، وهو بعد زمن الحجاج - الذى عمت الشكوى منه - بيسير ، وقد اشتهر الخير الذي كان فى زمن عمر بن عبد العزيز ، بل لو قيل : إن الشر اضمحل فى زمانه ، لما كان بعيدًا ، فضلاً عن أن يكون شرًا من الذى قبله .

وقد أجابوا عن هذا بعدة أجوبة :

أ - فالإمام الحسن البصرى حمل الحديث على الأكثر الأغلب ، فقد سئل عن عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج ، فقال : لا بد للناس من تنفيس !

ب - وجاء عن ابن مسعود رضى الله عنه من قوله : (لا يأتى

عليكم زمان إلا وهو أشر مما كان قبله ، أما إنى لا أعنى أميرًا خيرًا من أمير ، ولا عامًا خيرًا من عام ، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون ، ثم لا تجدون منهم خلفًا ، ويجئ قوم يفتون برأيهم) وفى لفظ عنه : (فيثلمون الإسلام ويهدمونه) ورجح الحافظ فى (الفتح) تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشرية هنا ، قائلاً : وهو أولى بالاتباع .

ولكنه فى الواقع لا ينفى الاستشكال من أساسه ، فالنصوص تدل على أن فى الغيب أدوارًا للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته ، ولو لم يكن إلا زمن المهدى والمسيح فى آخر الزمان لكفى .

والتاريخ يثبت أنه قد جاءت فترات ركود وجمود فى العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد ، ويكفى أن نذكر مثلاً من ظهر فى القرن الثامن من العلماء والمجددين - بعد سقوط الخلافة الإسلامية فى بغداد ، وتدهور الأوضاع فى القرن السابع ، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وسائر تلاميذه فى الشام ، والشاطبى فى الأندلس ، وابن خلدون فى المغرب ، وغيرهم ممن ترجم لهم ابن حجر فى كتابه (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة) .

وفى العصور التى تلت ذلك نجد مثل ابن حجر ، والسيوطى فى مصر ، وابن الوزير فى اليمن ، والدهلوى فى الهند ، والشوكانى والصنعانى فى اليمن ، وابن عبد الوهاب فى نجد ، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجددين .

وهذا ما جعل الإمام ابن حبان فى صحيحه يرى أن حديث أنس ليس على عمومه ، مستدلاً بالأحاديث الواردة فى المهدى ، وأنه يملأ الأرض عدلاً ، بعد أن ملئت جورًا [1] .

جـ - ولهذا أرى أن أرجح التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ فى (الفتح) بقوله : (ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة ، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك ، فيختص بهم ، فأما من بعدهم فلم يقصد فى الخبر المذكور ، لكن الصحابى فهم التعميم - فلذلك أجاب من شكا إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر ، وهم - أو جلهم - من التابعين) [2] أ . هـ .

وعلى هذا التفسير يحمل كلام ابن مسعود أيضًا : فهو خاص بأزمنة من كان يخاطبهم من الصحابة والتابعين ، وقد توفى فى زمن عثمان رضى الله عنهما .

وأما زعم من زعم أن الحديث يتضمن دعوة إلى السكوت على الظلم والصبر على التسلط والجبروت ، والرضا بالمنكر والفساد ، ويؤيد السلبية فى مواجهة الطغاة المتجبرين فى الأرض . . .

فالرد على ذلك من عدة أوجه :

---

(١) فتح البارى : جـ ١٦ ، ص ٢٢٨ - ط الحلبى .

(٢) المرجع السابق .

أولاً : إن القائل (اصبروا) هو أنس رضى الله عنه ، فليس هو من الحديث المرفوع ، وإنما استنبطه منه ، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك ما عدا المعصوم ﷺ .

ثانيًا : إن أنسا لم يأمرهم بـ (الرضا) بالظلم والفساد ، وإنما أمرهم بـ (الصبر) وفرق كبير بين الأمرين ، فإن الرضى بالكفر كفر ، وبالمنكر منكر ، أما الصبر فقلما يستغنى عنه أحد ، وقد يصبر المرء على الشيء ، وهو كاره له ، ساع فى تغييره .

ثالثًا : إن من لم يملك القدرة على مقاومة الظلم والجبروت ، ليس له إلا أن يعتصم بالصبر والأناة ، مجتهدًا أن يعد العدة ، ويتخذ الأسباب ، معتضدًا بكل من يحمل فكرته ، منتهزًا الفرصة المواتية ، ليواجه قوة الباطل بقوة الحق ، وأنصار الظلم بأنصار العدل ، وضد الطاغوت بجند الله .

وقد صبر النبى ﷺ ثلاثة عشر عامًا فى مكة على الأصنام وعبادها ، فيصلى بالمسجد الحرام ، ويطوف بالكعبة وفيها وحولها ثلاثمائة وستون صنمًا ، بل طاف فى السنة السابعة من الهجرة مع أصحابه فى عمرة القضاء ، وهو يراها ولا يمسها ، حتى أتى الوقت المناسب يوم الفتح فحطمها .

ولهذا قرر علماؤنا : أن إزالة المنكر إذا ترتب عليه منكر أكبر منه وجب السكوت عنه حتى تتغير الأحوال .

وعلى هذا لا ينبغى أن يفهم من الوصية بالصبر الاستسلام للظلم والطغيان بل الانتظار والترقب حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين.

رابعًا : إن الصبر لا يمنع من قول كلمة الحق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمام الطغاة المتألهين ، وإن لم تكن واجبة على من يخاف على نفسه أو أهله ومن حوله ، فقد جاء فى الحديث : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ، « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله ».

* * *

حديث (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم)

لقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » مقولة غريبة ، مضمونها : أن الإنسانية التى يحتضنها الإسلام تتقدم نحو ما هو أسوأ ، لا نحو ما هو أفضل ، وأنّ هذا التقدم إلى الأسوأ حتمىّ لا رادّ له ، وفقًا لهذا الحديث وأمثاله .

ولهذا يرجح أن هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة ، إما لتبرير ما حدث بالفعل ، إذا فرضنا أن الواضعين هم مسلمون فعلاً ، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام فى طريق اليأس ، إذا فرضنا أن الواضعين منافقون (١) .

والحق أن الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام ، لم يطعن عالم سنّى ولا معتزلى - فيما أعلم - فى سنده أو متنه ، بل ذكر ابن حجر والسيوطى وغيرهما من أئمة النقل أنه من المتواتر (٢) .

---

(١) انظر : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث - للدكتور فهمى جدعان ص ٢١ ، وما بعدها - طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(٢) انظر : نظم المتناثر فى الحديث المتواتر . للكتانى ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، حديث رقم (٢٤١) .

فاعتبار هذا الحديث موضوعًا : اتهام للأمة كلها بالجهل والغباء ، وترويج الباطل ، واجتماعها على الضلالة طوال تلك العصور ، وهذا مدخل لنسف الدين كله .

أما ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث ، وما رتبه عليه من نتائج ، فهو غير مسلّم له .

فالحديث إنما دلّ على فضل الجيل الذى تلقّى عن رسول الله ﷺ ، وتربّى فى حضانة النبوة ، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله ، ومن هدى رسول الله ، وحمله القدر من المهمات ما لم يحمله غيره، فهو الجيل الذى نقل القرآن للأُمة ، وروى لها السنن ، وفتح الله على يديه البلاد ، وهدى به العباد . ثم الجيل الذى تتلمذ على هؤلاء الأصحاب ، واقتبس من مشكاتهم ، واقتفى آثارهم ، والجيل الثالث الذى سار على دربهم واتبعهم بإحسان ، فرضى الله عنهم ، ورضوا عنه .

ولا يشك دارس منصف أن (الإشعاع الروحى) لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة ، كان من القوة والعمق والسعة ، بحيث لا يلحقه جيل آخر ، وهذا فى الجملة لا فى التفصيل ، وفى أمر الدين والتقوى لا فى أمر الحياة والعلم والعمران ، فهذه قد تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضّلة فى الالتزام الدينى .

وقد بشّر الرسول ﷺ أمته أنهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر ، وسينفقون كنوزهما فى سبيل الله ، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يومًا ، وأن الرخاء سيبلغ مدى لا يكاد يجد ذو المال يومها من يقبل منه الصدقة ، وأن الأمن سيستتبّ حتى أن المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام ، لا تخاف إلا الله ، وأن أرض العرب ستعود يومًا مروجًا وأنهارًا . فهل يعتبر هذا كله (تقدمًا إلى الأسوأ) ؟!

إن أى قارئ غير متعصب ولا متعسف للتاريخ يعلم أن الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ طوّروا كثيرًا من أمور الحياة ، وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم تكن فى عصر النبوة ، وهم الذين أمرنا أن نتبع سنتهم ، ونعضّ عليها بالنواجذ ، فهى امتداد للسنة النبوية المطهّرة .

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين فى عهد الأمويين والعباسيين ، يبتكرون ويضيفون أشياء لم تكن فى العصر النبوى ولا العصر الراشدى ، أقرّهم عليها علماء الأمة ، وانعقد الإجماع على مشروعيتها .

ويكفى أن تم فيها استبحار علوم الدين واللغة ، وتدوينها وتأصيلها ، وظهور المدارس العلمية والفكرية فى شتى أنواع العلوم والآداب ، ثم اقتباس علوم الأمم الأخرى ، عن طريقة الترجمة ، ثم تدارسها وإنضاجها وتهذيبها ، وإعمال يد التعديل والتحسين

والتحوير فيها ، بالحذف والإضافة والتغيير ؛ والتقديم والتأخير ، حتى تنسجم مع المزاج العام للأمة ، وتتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها ، وتجد لها مكانًا فى حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية . ثم ابتكار علوم جديدة كاملة ، لم يعرفها السابقون .

وفى هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلامية الفارعة الرائعة ، ثابتة الأصول ، باسقة الفروع ، وارفة الظلال ، مباركة الثمار .

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة فى مختلف مجالاتها ، وشتى فروعها ، بدعوى أن هناك أحاديث تغلّ أيديهم ، أم تقيّد أرجلهم ، أوتشل تفكيرهم ، محتّمة عليهم (التقدم إلى الأسوأ) !!

صحيح أن الأجيال المسلمة التى صنعت هذه الحضارة الشماء ، لم تكن فى شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية (الروحية) ، وهو أمر اعترف به الجميع ، ولكن هذا لم يقف حائلاً أمام تفوقهم العلمى ، وتقدمهم الحضارى ، وجهادهم الأخلاقى . بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالى نصب أعينهم ، باعتباره مثلاً إنسانيًا أعلى ، وبذلك يجمعـــون بين الحسنيين أو يحاولون ذلك على الأقل : حسنة الإبداع الحضارى المادى ، وحسنة السمو الروحى ، والترقى الإيمانى والخلقى .

على أن هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة ، وتنوه بصبرها وثباتها فى عصور الفتن والأزمات التى يمتحن فيها أهل

الإيمان ، وحملة رسالة الإسلام ، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر . حتى ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين ! قيل : منا أو منهم يا رسول الله ؟ قال : « بل منكم » (١) .

كما صحت أحاديث كثيرة تبشر بغد مشرق ، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام ، وملك واسع لدولته .

وصح الحديث كذلك أن الله يبعث فى كل مائة سنة من يجدد للأمة دينها ، وبذلك يتجدد أملها ، ويقوى رجاؤها ، فى صلاح الحال إذا فسد ، وقوة الدين إذا ضعف ، واستقامة الأمر إذا اعوج .

* *

● استمرار الخير فى سائر أجيال الأُمة :

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعنى أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة ، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات ، فقد حازتها تلك القرون ، ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقى الفتات .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه ، كتاب الملاحم برقم (٤٣٤١) ، والترمذى فى التفسير (٣٠٦٠) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه فى « الفتن » (٤٠١٤) ، كلهم عن أبى ثعلبة الخشنى .

بل الحق الذى لا ريب فيه أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة : واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة فى كل العصور ، ﴿ فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ (١) . وكم ترك الأول للآخر ، وكم فى الإمكان أبدع مما كان . وفى الحديث الشريف « مثل أمتي كالمطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » (٢) .

يقرر الشراح هنا : أنه كما لا يحكم بوجود النفع فى بعض الأمطار دون بعض ، فكذلك لا يحكم بوجود الخيرية فى بعض أجيال الأُمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه ، وفى هذا إيماء إلى أن باب الله مفتوح ، وطلب الفيض من جنابه مفسوح . فكل طبقة من طبقات الأُمة لها خاصيّة وفضيلة ، توجب خيريتها ، كما أن كل نوبة من نوبات المطر لها فائدتها فى النشوء والنماء لا يمكن

---

(١) المائدة : ٤٨

(٢) رواه الترمذى عن أنس فى أبواب الأمثال (٢٨٧٣) ، وقال : حسن غريب ، ورواه أحمد والبزار والطبرانى عن عمار بن ياسر ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : (٦٨/١٠) : ورجال البزار رجال الصحيح ، غير الحسن ابن قزعة ، وعبيد بن سليمان الأغر ، وهما ثقتان ، وفى عبيد كلام لا يضر ، ورواه البزار والطبرانى فى الأوسط عن عمران بن حصين ، وقال البزار : لا يروى بإسناد أحسن من هذا . المجمع : (٦٨/١٠) ، ورواه ابن حبان فى صحيحه عن سلمان جـ ١٦ حديث (٧٢٢٦) ، وحسنه محققه بشواهده .

إنكارها . فإن الأولين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات ، وتلقوا دعوة الرسول بالإجابة والإيمان ، والآخرين آمنوا بالغيب ، لما تواتر عندهم من الآيات ، واتبعوا من قبلهم بالإحسان . وكما أن المتقدمين اجتهدوا فى التأسيس والتمهيد ، فالمتأخرون بذلوا وسعهم فى التقرير والتأكيد ، فكلّ ذنبهم مغفور ، وسعيهم مشكور ، وأجرهم موفور .

قالوا : والمراد هنا وصف الأمة قاطبة - سابقها ولاحقها ، أولها وآخرها - بالخير ، وأنها ملتحمة بعضها ببعض ، مرصوصة كالبنيان ، مفرغة كالحلقة التى لا يدرى أين طرفاها [1] .

والمسلمون فى كل مكان وزمان يردّدون هذا القول بوصفه حديثًا نبويًا : « الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة » ومعناه صحيح ، وإن لم يرد بهذا اللفظ .

فقد صحت جملة أحاديث عن عدد من الصحـــابة تؤكد أن « لا تزال طائفة من هذه الأُمة قائمة على الحق حتى يأتى أمر الله » [2] ، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [3] .

---

(١) انظر ص (١٢٠) ، هامش ١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب (الإمارة) ٥٣ ، والبخارى فى صحيحه ٦١ ، كتاب (المناقب) ٢٨ ، باب : ٦/٦٣٢

(٣) الأعراف : ١٨١

كما صحت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام ، تعلو فيه كلمته ، وتنشر دعوته ، وتتسع دولته [1] .

* *

● **سنن وقواعد مطردة** :

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون : أن ثمة مبادئ راسخة ، وقواعد ثابتة ، وسننًا مطردة ، من محكمات القرآن والسُّنَّة ، يحتكم إليها الجميع ، منها :

١ - أن لكل عمل ثمرة ، ولكل جهد جزاء ، فى الدنيا قبل الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [2] ، ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [3] .

٢ - أن الجهاد فى الله ، سواء كان جهادًا روحيًا أم ماديًا ، لا يهدره الله أبدًا : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [4] .

٣ - أن من نصر الله نصره الله ، ومكّن له فى الأرض ، وإنما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات ، والصالحات : كل ما تصلح به

---

(١) انظر صفحة (١١) ، هامش ١

(٢) الكهف : ٣٠ (٣) الأعراف : ١٧٠ (٤) العنكبوت : ٦٩

الحياة روحيًا وماديًا ، وما يصلح به الإنسان فرديًا وجماعيًا . يقول تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلله عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) ، ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٢) .

* * *

(١) الحج : ٤٠ ، ٤١ (٢) النور : ٥٥